السنن الإلهية في الكون المادي والحياة البشرية

دراسة قرآنية تأصيلية في المفهوم والموضوع

د.**يونس ملال**

جامعة أدرار

ملخص الدراسة باللغة العربية

عندما نبحث عن معنى السنة في المصادر الإسلامية نجدها تعني سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولكن للسنة الإلهية في القرآن الكريم أبعاد أخرى، فهي تعني فعل الله وخلقه من جهة، وخطابه للناس بالهداية القرآنية من جهة ثانية، ومن هنا انقسمت السنن الربانية إلى قسمين : – سنن كونية واجتماعية، وسنن شرعية.

وهكذا نجد بأن السنن الكونية (قوانين الكون) ما تعلق منها بعالم الجماد أو ما تعلق بعالم السلوك الإنساني الفردي والجماعي هي تعبير عن طبيعة خلق الله وأمره الذي وفطرته التي فطر عليها الخلق.

ونجد بأن السنن الشرعية (أوامر الله ونواهيه) هي إفصاح وتعبير عن حقيقة الخلق من خلال آيات القرآن.

وهكذا يمكن التأسيس للمعرفة الإسلامية العلمية والشرعية بما يتفادى التعارض الموجود في منظومة القيم الغربية، من الصراع بين الدين والعلم أو بين الإنسان والطبيعة.

وفي هذه المقالة العلمية ألقيت الضوء على هذا المفهوم وأبعاده.

Résumé de l'étude

Lorsque l'on s'intéresse à la signification du mot « SOUNA » dans les sources islamiques, nous constatons qu'elle signifie les propos et les actes du Messager d'Allah (Allah bénisse et lui accorde le salut), mais pour le mot « SOUNA » (loi Divine) de Dieu dans le Coran a d'autres dimensions, cette dernière exprime l'acte et la création de Dieu , d'une

part, et sa proclamation aux hommes afin de les guider à travers le Coran, d'autre part, à partir de là les lois divines se divisent en deux:

-Lois universelles et sociales.

-Lois Divines du Dieu (du Charia).

Ainsi, nous constatons que les lois cosmiques (les lois de l'univers) relatives au monde des objets inanimés, ou au monde du comportement humain individuel et collectif est l'expression de la nature de la création de Dieu et de son commandement ainsi que la nature dont il a fait sa création.

Et Nous constatons que les lois divines du Dieu (les ordres de Dieu et ces interdictions) est l'information et d'expression du fait de la création à travers les versets du Coran.

Ainsi on peut postuler à la connaissance islamique scientifique et légitime en évitant les conflits existant dans le système de valeurs occidentales, le conflit entre la religion et la science, ou entre l'homme et la nature.

Dans cet article scientifique, j'ai projeté la lumière sur ce concept et ses dimensions.

مقدمة:

تعد السنن الإلهية، أو سنة الله الجارية في الكون، من المفاهيم الأساسية التي تكتسي أهمية بالغة في الفكر الإسلامي، لاسيما ما يتعلق منها بالجوانب الحضارية للأمة الإسلامية.

وحتى نتبين أهمية هذا المفهوم وأصالته وأبعاده بالنسبة للحياة الحضارية الإسلامية الفردية والاجتماعية، الفكرية والعملية، والانعكاسات الإيجابية المترتبة على مراعاة سنة الله في الحياة الطبيعية وفي الحياة الإنسانية، ينبغي التعريج على إيضاح دلالة هذا المفهوم من مصادر اللغة وبيان أبعاده في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، مع الاستفادة من فهوم العلماء العدول.

كما ينبغي الاحتراز عما ليس داخلا في مفهوم السنن الإلهية من الألفاظ المشتركة معه، كسنة النبي صلى الله عليه وسلم، أو سنن البشر التي جرت بها عاداتهم.

وسيتم تناولي للمفهوم والموضوع في هذه الدراسة من خلال عناصر ثلاثة:

أولا: معنى السنن و سنة الله في اللغة العربية وفي اصطلاح العلماء.

ثانيا: السنن الإلهية كما وردت في القرآن.

ثالثا: موضوع السنن الإلهية ومفهوم الحضارة في الفكر الإسلامي.

أولا : معنى السنن وسنة الله في اللغة العربية وفي الاصطلاح :

1/ معنى السنن وسنة الله في اللغة العربية : يقال سنن ومفردها سنة (بضم السين وفتح النون مشددة)، وقد جاء في لسان العرب معاني كثيرة للسنن : كالسن بمعنى الضرس أو العمر، والسنة والمسنون بمعنى الوجه المصقول، وكذا أداة الصقل وغيرها..

ومما يعنينا في هذا المقال ما ذكره ابن منظور من أن السنة هي : السيرة، حسنة كانت أم قبيحة، وكل من ابتدأ أمرا عمل به قوم بعده، قيل : هو الذي سنه.

وسنة الله : أحكامه وأمره ونهيه، وسنها الله للناس : بينها، وسن الله سنة : أي بين طريقا قويما [1].

وللَفظ في لغة العرب معان أخرى منها : الدوام والثبات على الأمر، كقولهم : سن الماء إذا داوم على صبه وسن الإبل إذا داوم على رعيها والإحسان إليها[2].

وتأتي السنة في اللغة بمعنى الطريقة والشرعة والمنهاج، بصرف النظر عن الإيجابية والقيمة والاستقامة، أو الاعوجاج في هذه الطريق أو تلك الشرعة أو ذلك المنهاج، وبصرف النظر عن صاحب السنة أهو بشر يصيب ويخطئ،

---

[1] جمال الدين ابن منظور، **لسان العرب**، مج 13، مادة سنن، ص 220–229.

[2] أنظر محمد هيشور : **سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها**، ص 23.

يحسن ويسيء، أم هو نبي معصوم موحى إليه، أم هو إله خالق الأمر منه وإليه.

قال الإمام الرازي [1] :" في اشتقاق هذه اللفظة وجوه، الأول :.. من سن الماء يسنه إذا واصل صبه، والسن الصب للماء، والعرب شبهت الطريقة المستقيمة بالماء المصبوب فإنه لتوالي أجزاء الماء فيه على نهج واحد يكون كالشيء الواحد، والسنة فعلة بمعنى مفعول. وثانيها : أن تكون من سننت النصل والسنان أسنه سنا فهو مسنون إذا حددته على المسن، فالفعل المسنون إلى النبي صلى الله عليه وسلم سنة على معنى أنه مسنون. وثالثها : أن يكون من قولهم سن الإبل إذا أحسن الرعي والفعل الذي داوم عليه النبي صلى الله عليه وإدامته "[2].

قلت : وكذلك فإن سنة الله تطلق على حسن رعايته سبحانه لجميع خلقه، فالسنة تطلق لغة على نوع محدد من الأفعال، قد يضاف إلى مطلق البشر، أو إلى النبي صلى الله عليه وسلم، أو إلى الله تعالى، فإذا أضيفت السنة إلى البشر فهي على معنيين:

فإما أنها من صنعهم وابتكارهم فلا تخرج عن كونها حسنة أو سيئة تعين على الثبات على الطريق المستقيم بالاستزادة من الخير أو تنحرف بالإنسان عن الجادة.

وفي الحياة العامة سنن كثيرة من هذا القبيل، تدخل في ذلك أعراف الناس وعاداتهم وما درجوا عليه في شؤون دنياهم، فتعرض هذه السنن التي ابتكروها ثم التزموا بها على ميزان الإسلام بنصوصه الصحيحة والصريحة، ومقاصده الكلية والجزئية وروحه العامة، فإن كانت حسنة فهي من سنة الله ولصاحبها ولمن عمل بها من بعده الأجر والثواب، وإن كانت قبيحة فعلى

[1] هو الإمام فخر الدين، محمد بن عمر ابن الحسين بن الحسن بن علي التميمي البكري الرازي الشافعي، ولد سنة 544 هـ، صاحب التصانيف الجمة في مختلف علوم الدين، توفي سنة 604 هـ.

[2] الرازي، التفسير الكبير، دار الكتب العلمية، بيروت ط1، 1990م، ج9 ص10-11.

صاحبها والعامل بها الوزر والعقاب إذ الجزاء من جنس العمل، قال النبي عليه الصلاة والسلام : " من سن في الإسلام سنة حسنة فعمل بها بعده كتب له مثل أجر من عمل بها ولا ينقص من أجورهم شيء، ومن سن في الإسلام سنة سيئة فعمل بعده كتب عليه مثل وزر من عمل بها ولا ينقص من أوزارهم شيء [1].

وإما أنها جارية عليهم ولكنها من حيث الأصل سنة إلهية، فإضافتها إلى البشر لفظية وغير حقيقية، ومعناها أن الله قد أجراها عليهم كما أجراها على الكون كله حيه وجامده، من ذلك ما ذكره القرآن الكريم : " فهل ينظرون إلا سنة الأولين "[2]، أي التي أجراها عليهم.

ومن ذلك ما جاء في الحديث: " لتتبعن سنن من كان قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع "[3].

وإذا أضيفت السنة إلى الرسول صلى الله عليه وسلم قصد بها معان اصطلاحية متعددة حسب اصطلاحات العلوم الإسلامية المرتبطة بعصر التدوين.

كما أن السنة إذا أضيفت إلى الله سبحانه كان معناها ما نطق به القرآن الكريم وجاء على ذكره بعض المفسرين، ثم تطور المفهوم وتجذر على يد العلماء والمفكرين كما سيأتي شرحه خلال هذه الدراسة.

2/ معنى السنن وسنة الله في اصطلاح العلماء : نظر أسلافنا من أهل العلم إلى السنة على أنها هدي النبي صلى الله عليه وسلم في بيانه لمعاني وأحكام القرآن الكريم، وسموا ذلك سنة قولية، أو ممارسته عليه السلام للحياة وفق

---

[1] رواه مسلم في صحيحه في كتاب العلم، باب من سن في الأسلام سنة حسنة أو سيئة، أنظر ج2 ص 1131 طبعة المكنز الإسلامي القاهرة 1421هـ، .

[2] فاطر، 43.

[3] رواه البخاري في صحيحه كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب لتتبعن سنن من كان من قبلكم، وفيه أيضا عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم : لا تقوم الساعة حتى تأخذ أمتي بأخذ القرون قبلها أنظر ج3، ص1478، طبعة المكنز الإسلامي، القاهرة 1421هـ.

معاني القرآن الكريم وسموا ذلك سنة عملية، أو إقراره الناس على أمر ما وسموها سنة تقريرية، فكان المعنى الذي يتجه إلى أن السنة هي النهج القويم والطريقة المثلى في مباشرة الحياة الفردية والجماعية وفقا لشرع الله تبارك وتعالى أو هدي الله سبحانه كما بينه الرسول الكريم، تلك الطريقة التي تستحق الثناء في الدنيا والجزاء الأوفى ثوابا يوم القيامة.

ومع بداية تدوين العلوم انفرد أهل كل فن واختصاص في الإسلام بتعريف خاص، فباتت السنة عند المحدثين مرادفة لما أضيف إلى النبي صلى الله عليه وسلم من قول أو فعل أو تقرير أو صفة خلْقية أو خلقية. وهي عند الفقهاء الندب، أي ما طلب الشارع من المكلف فعله طلبا غير جازم يستحق فاعله الجزاء ولا يذم تاركه. وعرف الأصوليون السنة بأنها المصدر الثاني للتشريع ممثلة في الأحاديث المنطوية على أحكام شرعية[1].

كما اشتهر القول كذلك بأن السنة معناها ما يقابل البدعة، وإذا كانت السنة هي هدي النبي و بيانه لهدي الله وشرعته، فإن البدعة هي الاختلاق الزائد على الدين أوهي " الطريقة المخترعة في الدين يراد بها مضاهاة الشريعة"[2].

إن للشريعة وسائلها ومقاصدها التعبدية، وباب التعبد لا يقبل الزيادة ولا النقصان ولا التغيير ولا التحوير، ومن فعل من ذلك شيئا فقد شرع ما لم يأذن به الله، فإذا كان مقصد الصلاة مثلا هو القرب من الله وإدامة الصلة به، وكانت وسيلتها الحركات المخصوصة التي تبدأ بتكبيرة الإحرام وتنتهي بالتسليم فلا يجوز أن تستبدل هذه الوسيلة بغيرها من الاختلاق كأن يتقرب الإنسان من الله بتأمل خاص أو طريقة من عنده، فإن ذلك لن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين. لذلك قيل : من أحيا بدعة فقد قتل سنة، لما بينهما من التضاد.

---

[1] أنظر : السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي، مصطفى السباعي، دار الوراق المكتب الإسلامي، دمشق، ط2، 2000م، ص67-68

[2] أبو اسحاق الشاطبي، **الإعتصام**، دار الشريعة، ج1، ص28.

لكن هذا المعنى مقتصر على الجانب التعبدي المحض أو غير معقول المعنى باصطلاح الفقهاء، أما ما كان داخلا في مجال السياسة الشرعية مما يراد به جلب المصالح أو درء المفاسد، أو ما كان منشؤه التطور الطبيعي للحياة النفسية والاجتماعية للأفراد والشعوب، فالاجتهاد فيه – من أهل الاجتهاد– واجب، والخطأ فيه مأمون العواقب، وقد بين ذلك حديث النبي صلى الله عليه وسلم " من اجتهد فأصاب فله أجران، ومن اجتهد فأخطأ فله أجر واحد "[1].

من هنا وجب التفريق بين البدعة والاجتهاد المستند إلى المصالح المرسلة والاستحسان.. كما بين ذلك الإمام الشاطبي في كتابه المتميز "الاعتصام"[2]، وبعبارة أخرى ينبغي التفريق بين ما فيه محل للاجتهاد فليس ببدعة، وما ليس فيه محل لمجتهد وهو عين الابتداع المحظور في الدين، ولذلك صاغ العلماء ما هو شبيه بالقاعدة مفاده: روح الدين الاقتداء والإتباع وروح الدنيا الابتكار والابتداع[3].

والاتجاه الذي قصدت إليه في دراسة وتعريف السنن ليس هو هذا الاتجاه ولكن له معه صلة إذ ينبغي الاحتراز ليخرج من معنى " سنة الله " ما اعتاد الناس على فعله، وهو ما درجوا عليه في شؤون دنياهم. وكذلك ليعلم بأن سنة الله أعم من الاصطلاح الفني الخاص.

فالمعنى الذي اقتضاه التخصص هو بالإضافة إلى ما بقصد بالسنة أو السنن الإلهية في الفكر الإسلامي أو ما اصطلح عليه : الفقه الحضاري، أشبه بالعلاقة بين الخاص والعام.

والسنة في هذه الدراسة وفي الفكر الإسلامي المعاصر وفي ميدان الفقه الحضاري أشمل من أن تقتصر على كونها حكم الله التشريعي الذي جلاّه رسوله

---

[1] رواه البخاري في صحيحه كتاب الاعتصام، باب:أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ ج3،ص1483 ، ومسلم كتاب الأقضية باب: بيان أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ ج2 ص 747.

[2] أنظر : الاعتصام، ج2، ص 315 وما بعدها.

[3] أنظر: يوسف القرضاوي، **أين الخلل**، مكتبة رحاب، ط2، ص 12

في الحديث، إنها : **مطلق أحكام الله وأوامره وعادته في معاملة خلقه، ومجمل بيانه للطريق المستقيم وحال من سار عليه من السعادة أو من خالفه من الشقاء يستوي في ذلك أحكام الله وعادته التي أجراها على الكون الأصم وتلك التي أجراها على البشر أفرادا وجماعات وأمما.**

وبهذا فسنة الله موافقة لسعة معنى اللفظ في القرآن الكريم من مثل قوله تعالى : (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق..)[1]، ومثله قوله سبحانه وتعالى : (**سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا**)[2]، وقوله جل وعلا : (**وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله**)[3], وقوله تعالى : (**فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى**)[4].

والنظر في الكون والحياة بهذا المعنى السنني الشامل لم يكن موضوعا بارزا للبحث عند المتقدمين فلا نكاد نقف لهم على تعريف اصطلاحي شامل لمعنى السنن الإلهية كما ذكرت في القرآن، على كثرة ما ذكرت، ذلك أن علم السنن والنواميس المادية الطبيعية أو التاريخية الإنسانية (= السنن الحضارية) قد تأخر تناوله بشكل منهجي معمق في تاريخ الإسلام وتاريخ البشرية عموما، ولعله إلى اليوم لا يزال موضوعا بكرا، وما نجده عند المتقدمين، بعضه في كتب الكلام والفلسفة، وبعضه في كتب العلل والمقاصد وفضائل الشريعة، والبعض الآخر عند المفسرين.

ومما ذكر في معنى السنة ما ذكره الإمام الرازي في تفسيره حيث قال: " السنة : الطريقة المستقيمة والمثال المتبع "[5], وما ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية

---

[1] فصلت، 52.

[2] الأحزاب، 62.

[3] الأنعام، 154.

[4] طه، 121-122.

[5] التفسير الكبير، ج9 , ص 10.

بقوله : " السنة هي العادة التي تتضمن أن يفعل في الثاني ما فعله في الأول ولهذا أمر الله بالاعتبار "[1].

ثانيا : السنن الإلهية كما وردت في القرآن الكريم :

وسأتناول ذلك من خلال نقاط ثلاثة، فأذكر لفظ السنة كما وردت في القرآن الكريم ومعناها، ثم أعرج على أهم الألفاظ التي استعملها القرآن الكريم في التعبير عن هذا المعنى ودلالات تلك الألفاظ، لأخلص إلى بيان موضوع السنن الإلهية في القرآن الكريم.

1- لفظ السنن الإلهية ومعناها في القرآن الكريم :

ورد ذكر السنن الإلهية أو سنة الله في القرآن الكريم بلفظها سبعة عشر مرة، تشعبت تصريفاتها بين الإفراد والجمع، وتنوعت إضافاتها بين الإسناد إلى ذات المتكلم سبحانه وتعالى، أو إلى الأمم الخالية من الأولين[2], وإسناد السنة إلى الباري سبحانه وتعالى إسناد أصالة، إذ هو سبحانه خالقها ومبدعها على الهيئة المخصوصة التي قامت عليها، أما إسنادها إلى الأمم الخالية فهو إسناد انفعال بها، وإجراء من الله سبحانه وتعالى لهذه السنن على تلك الأمم، بثبات واطراد على وفق عادته سبحانه في معاملة خلقه.

والجدير بالملاحظة أن القرآن الكريم لم يعبر عن السنن الإلهية بلفظها إلا في موضوع واحد، هو التاريخ البشري فيما يرتبط بمسائل النفس والاجتماع، أو بعبارة جامعة: في موضوع الحضارة الإنسانية، فيما يرتبط بسلوك الإنسان فردا وأمة.

وإذا كان حاضرا في أذهاننا تأكيد القرآن الكريم في كل موضع يذكر فيه السنة الإلهية على شموليتها وثباتها واطرادها، تبينت لنا الحكمة من التخصيص القرآني للفظ السنة الإلهية بمسائل الاجتماع البشري، إذ الإنسان هو الكائن

---

[1] مجموع الفتاوى، ج13 , ص 140.

[2]محمد هيشور، **سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها**، ص 23-24.

الوحيد على وجه المعمورة الذي يعتبر نفسه حرا يتصرف على الأرض كيف يشاء، ويتخذ لنفسه طريقا من بين ألف طريق وطريق، فلا رقيب على سلوكه ولا راد لاختياره، والإنسان هو الكائن الوحيد الذي يشعر من نفسه فعلا بهذه الحرية من بين جميع أجزاء الكون الصامت[1]. وإذا كان أمر الإنسان كذلك فكيف يكون لسلوكه قانون صارم ؟

إن القرآن الكريم يقول للإنسان : كلا.. فإن الله عز وجل قد جعل لسلوكك وأفعالك سبلا محددة ومحدودة من حيث تشعر أو لا تشعر، تختزل هذه السبل في نهاية المطاف في سبيلين أساسيين لا ثالث لهما، وفي هذا يقول القرآن الكريم : (وهديناه النجدين)[2]، يقول: (إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا)[3].

فكل طريق يأتي ولا بد بثماره، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر، ولن يجني الإنسان من الشوك العنب.

وسلوك الإنسان في الزمن – وهو ما نسميه بالتاريخ – لا يعدو أن يكون مباشرة أفعال وتلقي نتائج، والسؤال الذي يرد هنا ابتداء: هل يملك الإنسان نتائج أفعاله كما يملك مقدماتها ؟ والسؤال الذي يرد ثانيا: من رتب النتائج المعينة المحددة المخصوصة على مقدماتها المعينة المخصوصة ؟ أما السؤال الذي يرد ثالثا فهو: هل يملك الإنسان تغيير ارتباط الأسباب بمسبباتها أو النتائج بمقدماتها ؟.. وبعبارة أخرى: هل حرية الإنسان التي يقيم عليها تنصله من السنن الإلهية في هذا الكون، حرية حقيقية ومطلقة ؟

---

[1] أخذنا هذا التعبير من عبارات جماعة من العلماء منهم ابن تيمية قديما والشيخ محمد الغزالي حديثا في كلامهم عن الكون والقرآن من هذه العبارات: الكون قرآن صامت والقرآن كون ناطق، القرآن كتاب الله المسطور والكون كتاب الله المنظور ..الخ والقصد أن الكون . خلافا للإنسان . لا يتكلم بطريقة مباشرة ولا تظهر له إرادة أو اختيار، لكنه يكشف عن نظامه باستكناه سننه وقوانينه.

[2] البلد، 10.

[3] الإنسان، 3.

إن الإجابة عن هذه الأسئلة تكشف بلا ريب عن جانب مهم مما أراد القرآن الكريم أن يرسخه في عقول البشر من معنى السنة الإلهية ونفاذها اللازم في الحياة وثباتها الذي لا يملك أحد تغييره بإطلاق.

والذي أريد التنبيه عليه ها هنا هو أن أحد معاني السنة الإلهية كما وردت في القرآن الكريم هي : خلق الله تعالى للعالم (أي ما سواه) بما في ذلك الإنسان، على هذه الهيئة المخصوصة التي هي إحدى الإمكانات العقلية، وجعل سلوك الإنسان – فردا وأمة – مربوطا ومقيدا على وفق طبيعة الخلق وخصائصه، أو بعبارة أخرى فإن : **السنة الإلهية تعني من هذه الزاوية وضع مخصوص للكون والإنسان والعلاقة بينهما , ولوظيفة كل منهما، وإخبار عن حقيقة هذا الوضع في القرآن الكريم.**

ولما كان فعل الله مقترنا أبدا بالحكمة لأنه الحكيم، وبالعدل لأنه هو العدل سبحانه، جاءت السنن الإلهية، أو هذا الوضع الإلهي المخصوص حكيما وعادلا، سواء أدرك العقل البشري ذلك أم استعصى عليه الإدراك.

والحقيقة أن هذه السنن هي محل العبرة والاعتبار من القصص القرآني الذي يحكي حال الأمم السابقة وما جرّه – لها أو عليها – فعلها الاجتماعي وموقفها التاريخي من خير أو وبال، وسعادة أو شقاء، فمتع الله بعضها وأهلك بعضا. ومحل الاعتبار لا يكون كاملا ما لم تكن للإنسان القدرة على اختيار فعله وسلوكه، من ثم القدرة على تغيير النتائج بتغيير المقدمات.

والحق أنه ليس أمام الإنسان الذي لم يصنع قوانين الكون والاجتماع البشري ولا يقدر على تجاوز هذه القوانين والسنن، ولا على تعطيلها أو اختراقها، سوى العلم بها على الهيئة التي فطرها عليها صانعها، ثم تسخيرها فيما خلقت لأجله، فإن كان جاهلا بالسنن، أو مسخِرا لها في غير ما وضعت لأجله , كانت العاقبة خسرانا مبينا.

والقرآن الكريم من خلال ما يعرض من القصص خاصة، يبين للناس بهدايته ويدعوهم بإرشاده، إلى العوامل التي من شأنها أن تقود إلى معرفة سبل التغيير نحو الأحسن، واختيار الطرق التي تهدي إلى السعادة في الدارين.

ومن ذلك عرض القرآن الكريم أحوال أرباب الحضارات السالفة من الصالحين والطالحين، وعرضه عاقبة الأمور في كل طائفة , وتأكيده أن ذلك مطرد في الآخرين كما في الأولين.

ومن ذلك أيضا إعلام القرآن الكريم الإنسان بالحقائق الغيبية التي لا سبيل إلى معرفتها بصفة قطعية أو مفصلة خارج مجال السمع، كطبيعة خلق الكون والإنسان التي قال فيها سبحانه وتعالى : (**ما أشهدتهم خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم وما كنت متخذ المضلين عضدا**)[1]، وكجعل الكون بعد خلقه مسخرا للإنسان لا هو له عدو وهو له إله، وكخلق الإنسان من طبيعة ثنائية مزدوجة فيها نفخة الروح وفيها قبضة الطين، وكخلق الإنسان من أجل حمل الأمانة بعد أن كان ظلوما جهولا، مبتلا في الأرض على النجاح أو الفشل في مهمة التعبد لله تعالى وعمارة الأرض والاستخلاف فيها، تلك المهمة التي أنيط بها رضا الله على هذا الإنسان أو سخطه، وأنيط بها خلود الكائن البشري في النعيم أو انحداره في الجحيم..

ومن ذلك إخباره سبحانه وتعالى بعدم جدوى مغالبة الحق الذي جاءت به الرسل، والذي ينتصر دائما وتكون له العاقبة أبدا، ذلك لأن الكون مبني في أساس تكوينه وعمق فطرته وأصل خلقته، أي في ماهيته على ما يجعل الحق يمكث في الأرض والباطل يذهب جفاء كزبد البحر، قال سبحانه : (**كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله لقوي عزيز**)[2]، وهذه الغلبة لها محتوى سببي ومعنى سنني وكوني مرتبط بأصل العلاقات العامة التي تحكم تدافع الحق والباطل، ومرتبط

---

[1] الكهف، 50.

[2] المجادلة، 20.

بطبيعة الأشياء المخلوقة لله تبارك وتعالى في هذا الكون، وفي مثل هذا يقول سبحانه : (قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف وإن يعودوا فقد مضت سنة الأولين)[1]، يعني بذلك المشركين من أصحاب أبي سفيان، إن ينتهوا عن الكفر والمعاصي وقتال النبي صلى الله عليه وسلم يغفر لهم ما قد سلف من الكفر والمعاصي، وإن يعودوا إلى قتاله (فقد مضت سنة الأولين) دليل الجزاء، والتقدير : انتقمنا منهم فقد مضت سنة الأولين [2] بنصرة الله للحق على يد أنبياءه وخذلانه للمشركين والكافرين، وهذا لا يخص مشركي مكة، بل هو عام في كل من يعاند الحق ويعارض دعوة الأنبياء، في كل مكان وفي أي زمان، فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

ولا مطمع في أن تتغير هذه القواعد والسنن، فقد قال تعالى مخبرا عن ذلك : (فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا)[3]، أي أنه لا يبدلها سبحانه – وهو القادر على ذلك – ولا يقدر أحد غيره على تبديلها.

فلم يبق للإنسان سوى أن يتخندق في معسكر جند الله الغالبين، فينعم بسعادة يحسده عليها الملوك والقياصرة، دأبه السعي الدائم الحثيث للرفع من شأن الفضائل والمنافع، ليبني بذلك حضارته ويحفظ على نفسه كرامته، أو يميل مع الشيطان ومعسكره وكيده، و(إن كيد الشيطان كان ضعيفا)[4] فيستعد لملاقاة مصيره المشؤوم الذي قوامه ظلمة النفس وضنك العيش في الدنيا، والحشر يوم القيامة أعمى.

وإذا كان السؤال واردا عن كيفية العلم بهذه السنن وهذا الوضع ذاك المنهج، فإن الجواب يكمن في محتوى الإسلام – وهو فطرة الله في الأرض – وفي تنظيم هذا الدين للعلاقات العامة بين الخالق والمخلوقات، وبين المخلوقات

---

[1] الأنفال، 38.

[2] جمال الدين القاسمي، **محاسن التأويل**، دار الفكر،ط2، ج8، ص55.

[3] فاطر ،43-44.

[4] النساء،76.

الكونية – السموات والأرض – والمخلوقات البشرية – الإنسان الخليفة – وتوضيحه للعلاقات بين الإنسان وأخيه الإنسان، وبينه وبين الكون، وفي بيان الإسلام للحقوق والواجبات العامة، وجعله أكثر ذلك عقائد لازمة، وأخلاقا نافذة، وتكاليف عملية واجبة الإتباع وفق نظام الخلافة.

إن ذلك الوضع الفطري الصحي لهو الكفيل برأب الصدع في أجزاء الكون وعناصر الخلق، وجمع لحمته في تكامل وانسجام يجمع نسيج الخلق بطريقة صحيحة، مثمرة وفاضلة.

فتكون بهذا المعنى التكاليف الشرعية، والأوامر والزواجر الإلهية سننا إلهية كونية كذلك بمعنى ما، وليست فقط سننا شرعية، أي أنه حتى وإن كان الإنسان مخيرا ابتداء في اتباعها أو الإعراض عنها مما يوهم بعدم موضوعيتها وكونيتها، فإنه غير مخير مآلا فيما يترتب على ذلك في الدنيا قبل الآخرة ويكون مخالفا – بمخالفة أحكام الله – لطبيعته وفطرته، ومن ثم لمصلحته ومنفعته وسعادته في العاجل والآجل.

وهذا جانب آخر لمعنى سنة الله كما ورد ذكرها وبيانها في جملة عريضة من آيات القرآن الكريم من ذلك قوله تعالى: " **فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى** "[1] فالشقاء يكون في الدنيا والآخرة معا.

ومن ذلك قوله عز وجل: "**وما خلقت الإنس والجن إلا ليعبدون** "[2] دلت هذه الآية على أن الغاية من الخلق عبادة الله، فتكون طبيعة الكون وطبيعة الإنسان قد خلقت على وفق تأدية هذه الغاية، ومن ثم كان السعي لخلاف هذه الغاية مخالفا

[1] طه، 121 –124.

[2] الذاريات، 56.

لطبيعة الخلق وعائدا على أصحابه بوبال أمرهم.. ومثل هذا في القرآن كثير سواء كانت دلالته صريحة أو ضمنية.

وتوضح هذه الحقيقة ما ذكرته سابقا من تعريف لسنة الله بأنها **وضع إلهي مخصوص وإخبار عن ذلك الوضع**، فالسنن الشرعية، أي أحكام الله التي نص عليها سبحانه في القرآن ليست سوى تبيين وتوضيح لما هو كائن بالفعل ومغروز قبل البيان وبعده في فطرة الكون وفطرة الناس.

2- ألفاظ القرآن الكريم في الدلالة على سنة الله :

إذا كان القرآن الكريم قد اقتصر في التعبير بلفظ السنة التي لا تتبدل ولا تتحول على أحوال الأمم وسلوك البشر، فإن ذلك لا يعني بأن سنة الله مقتصرة على سلوك الإنسان.

وباعتبار أن الله تعالى هو خالق كل شيء فقد فطر جميع الكون بأفلاكه وأجرامه على نظام معين لا يحيد عنه ولا ينبغي له ذلك ولا يستطيع، وقد عبر القرآن عن ذلك في مواطن كثيرة، منها قوله تعالى: **(وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون)**[1].

فعبر القرآن الكريم ها هنا عن الناموس الكوني الذي يجري عليه الله الليل والنهار والشمس والقمر " **بالآية** " **و**" **التقدير** ".

فأما دلالة الآية فهي أن الله تعالى جعل نظام الكون واطراد هذا النظام علامة على وجوده وقدرته وعلمه، وعلى حكمته وعدله، وقد أدرج علماء العقيدة هذا النظام ضمن الأدلة الشاهدة على وجود الباري جل وعلا، وسموه دليل العناية والنظام، وقد عبر القرآن الكريم عن السنة الإلهية بلفظ الآية في مواضع كثيرة، من مثل قوله سبحانه: **(سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق)**[2].

---

[1] يس، 36-39.

[2] فصلت، 52.

وأما دلالة التقدير فهي أن الله تعالى ما خلق هذا الكون إلا لغاية مخصوصة ورسالة بينة، فالكون موزون مقدر محسوب بما للحساب من دقة تجعل منه مصيبا للهدف المطلوب منه والغاية المحددة له، كما قال تعالى : (**والسماء رفعها ووضع الميزان أن لا تطغوا في الميزان وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان**)[1]، وقال عز وجل : (**وكان أمر الله قدرا مقدورا**)[2].

وهذا خلافا لمن يظن المصادفة والعبثية في خلق الله، وفي نفي هذا الظن قال سبحانه : (**أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون فتعالى الله الملك الحق**)[3]، وقال عز وجل : (**وما خلقنا السماوات والأرض لاعبين ما خلقناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون**)[4].

فلا مجال في خلق الله للمصادفة والاتفاق، ولا مجال للعبث واللعب، بل إن في كل زاوية من زوايا الكون تقدير لله، وسنة ماضية لله، وأمر أو تدبير محكم لله، كما قال تعالى : (**وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين**)[5].

ومثل تعبير القرآن عن السنة الإلهية بتقدير الله وآياته , تعبيره عنها **بفطرة الله وبخلق الله وبكلمات الله..**

ودلالة تسمية السنة بخلق الله، أي الوضع الثابت الذي أبدع الله على شاكلته الخلق والذي يعبر عن خصائص الأشياء، جاء ذلك في قوله تعالى :(**لا تبديل**

---

[1] الرحمان , 5-7.
[2] الأحزاب , 38.
[3] المؤمنون، 115- 116.
[4] الدخان، 36-37.
[5] يونس، 61.

لخلق الله)[1]، وهو ذات معنى فطرة الله، وجاء التعبير بها فيما يتعلق بالكون الجامد في قوله تعالى : (فاطر السماوات والأرض)[2].

وفيما يتعلق بالإنسان قال سبحانه : (فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون)[3].

وقد فسر قوم فطرة الله التي فطر الناس عليها بالتوحيد، أو الإسلام كما جاء في الحديث : " ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء "[4].

وفطرة الكون الصامت[5] في القرآن كذلك جاءت بلفظ الإسلام، كما قال ربنا سبحانه:(أفغير دين الله يبغون وله أسلم من في الأرض طوعا وكرها وإليه يرجعون)[6] فدل هذا على على أن لفظ الإسلام يشمل إسلام الكائنات جميعا لرب العالمين، بخضوعها وانقيادها لأمره سبحانه بما فطرها عليه.

وإذا كان من خصوصية تتعلق بالإنسان في هذا الشأن من إمكان إقبال الإنسان على الله أو الإعراض عنه , فهي خصوصية جزئية لا كلية , ابتدائية لا مآلية , مقيدة لا مطلقة وهي متسقة مع حكمة الله في الابتلاء، وبالقدر الذي تتحقق معه المسؤولية والجزاء، ومشيئة الإنسان في هذا الكون لا تخرج عن مشيئة الله العليا التي ضبطت المقادير وسنت القوانين وطبعت الأشياء (وما تشاؤون إلا أن يشاء الله).

---

[1] الروم، 29.

[2] فاطر ، 1.

[3] الروم، 29.

[4] رواه البخاري في كتاب الجنائز ، باب: إذا أسلم الصبي.. ج1، ص254.

[5] بمعنى ما فطر الله عليه الطبيعة (تربة وهواء وماء وسماء وغيرها).. خلافا للإنسان الذي تحكمه قوانين الشريعة وقوانين النفس والاجتماع والتاريخ والحضارة.

[6] آل عمران , 883.

3- موضوع السنن الإلهية في القرآن الكريم :

من خلال ما تم عرضه يتبين بوضوح أن سنن الله وقوانينه مبثوثة في كل أرجاء الكون، حاكمة لجميع أجزائه، فلا يخرج عن قدر الله وتقديره، أو عن حكم الله وأمره، شيء من هذا العالم، والعالم هو ما سوى الله تعالى، الخالق الذي لم يُخلَق، والحاكم الذي لا يُحكَم، والآمر الناهي الذي لا يؤمر سبحانه ولا ينهى، المريد الذي لا يحد إرادته شيء، والقادر الذي لا يقف في طريق قدرته شيء.

فسنن الله تحكم أنظمة الكون، دقيقه وعظيمه، كما تحكم أنظمة الناس الكسبية والفطرية، فرادى وجماعات , وتحكم سنن الله كذلك العلاقة بين أنظمة الكون وسلوك الناس، ومعنى كونها تحكم ذلك أي تتحكم هذه السنن في النتائج والثمار، ومن ثم في سعادة الإنسان أو شقائه، في تحضره أو تخلفه، في إهلاكه أو إبقائه..

وإذا فهم هذا المعنى، يمكن أن نفهم المعنى الوطيد بين الحضارة بمعناها الوظيفي الذي محوره الإنسان ومبدؤه الأفكار ووعاؤه الزمن وساحته الأرض وغايته السعادة البشرية.. والسنن الإلهية التي تعد المدخل الطبيعي الذي سنه الله ليؤدي إلى التوافق بين إرادة الله من خلق الخلق، وإرادة الناس في إسعاد أنفسهم في العاجل والآجل.

مصادر البحث ومراجعه

1- القرآن الكريم

2- الجامع الصحيح للإمام البخاري

3- صحيح مسلم ابن الحجاج

4- القاسمي، محمد جمال الدين، محاسن التأويل دار الفكر بيروت، الطبعة الثانية 1389هـ، 1978م.

5- الرازي، فخر الدين، التفسير الكبير، مفاتيح الغيب، ج9، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1411هـ، 1990م.

6- ابن منظور، جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم، لسان العرب، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت.
7- الشاطبي أبو إسحاق، الاعتصام، ج1، ج2، دار الشريعة، الجزائر.
8- ابن تيمية، أحمد عبد الحليم مجموع الفتاوى، ج8، ج13.
9- هيشور، محمد، سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الطبعة الأولى، 1417هـ، 1996م.
10-السباعي، مصطفى، السنة ومكانتها في التشريع، دار الوراق المكتب الإسلامي، الطبعة الثانية، دمشق، 2000م.
11- القرضاوي، يوسف أين الخلل، مكتبة رحاب للنشر والتوزيع،الطبعة الثانية، 1406هـ، 1986م.